تعهد ومثابرة

تعهُّد
ومُثَابَرة

إن تعهُّد القرآن والمثابرة على تدبره، أَمْرٌ لا بُدَّ منه لحياةِ الإنسان.

عَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

« مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ ، فَلَهُ أَجْرَانِ ».[1]

وقيل لعبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إنك لَتُقِل الصوم.

فقال: « إنه يمنعني عن قراءةِ القرآن، وقراءتهُ أحَبُّ إليَّ منه ».

وقال عبد الله بن عمر بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: « إن من أشراط الساعة أن يُبسَط القول، ويُخزن الفعل، ويُرفع الأشرار، ويُوضَع الأخيار، وأن تُقرأ المثناةُ على رؤوس الناس لا تُغيَّر ».

قيل: وما المثناة ؟

قال: « ما استُكْتِب من غير كتاب الله ».

قيل له: فكيف بما جاء من حديث رسول الله ﷺ ؟

قال: « ما أخذتموه عمَّن تأمنونه على نفسه ودينه فاعقلوه، وعليكم بالقرآن، فتعلَّموه وعلِّموه أبناءكم؛ فإنكم عنه تُسأَلون، وبه تُجزون، وكفى به واعِظاً لِمَن عَقل ».

عليكم بالقرآن، تعلموه وتدبروه؛ لتعملوا به، وأنتم في صُحبة رسول

---

(1) البخاري: كتاب التفسير.

الله، لتتخذوا معه سبيلاً للهُدَى والنجاة؛ فإنكم عنه تُسأَلُونَ، وبه تُجزون.

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾.[1]

« يخبر الله ـ تعالى ـ عن نَدَمِ الظالم، الذي فارق طريقَ الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله من الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه، وسَلَكَ طريقاً أخرى غير سبيل الرسول؛ فإن كان يوم القيامة نَدِمَ حيث لا ينفعه الندم، وعَضَّ على يديه حسرةً وأسفاً. فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويَعَضُّ على يديه قائلاً: ﴿ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ يعني: مَن صرفه عن الهُدى، وعَدَلَ به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة.

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ ﴾ وهو القرآن ﴿ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ﴾ أي: بعد بلوغه إليَّ.

﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه ».[2]

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾.[3]

---

(1) الفرقان: ٢٧ـ ٢٩.

(2) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٢١.

(3) الفرقان: ٣٠.

يقول الله تعالى مُخبراً عن رسوله ونبيِّه محمد ﷺ أنه قال: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن، ولا يستمعون إليه كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.[1]

فكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآنُ أكثروا اللغَطَ والكلام في غيره؛ حتى لا يسمعونه. فهذا من هُجرانه وترك الإيمان به.

وتَرْك تصديقه (من هُجرانه).

وتَرْك تدبره وتفهمه (من هُجرانه).

وتَرْك العمل به، وامتثال أوامره، واجتناب زواجره (من هُجرانه).

والعدول عنه إلى غيره ـ من شِعْرٍ، أو قولٍ، أو غناءٍ، أو لهو، أو كلام، أو طريقةٍ مأخوذة من غيره ـ (من هُجرانه).

فنسأل الله الكريم المَنَّانَ، القادرَ على ما يشاء أن يُخلِّصنا مما يُسخطه، ويستعملنا فيما يُرضيه، من حِفْظِ كتابه وفَهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يُحبُّه ويرضاه. إنه كريم وهَّاب ».[2]

ذاك ما ذكره الإمام "ابن كثير" في تفسير هذه الآية.

---

(1) فصلت: ٢٦.

(2) تفسير ابن كثير: ٤٢٣/٣.

وهذه الشكوى لها دلالتها في ذاتها، وفيما يترتب عليها.

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي: بثّاً وشكايةً لله مِمَّا صنَعَ قومُه.

ومَن تدبرها عرف ما فيها من تخويف لِمَن اتَّخَذَ القرآن مهجوراً.

لأنَّ الأنبياء إذا شكوا إلى الله تعالى قومَهم عَجَّل لهم العذاب.

أمَّا بالنسبة للرسول ﷺ فقد سَلاَّه ربُّه، وَسَرَّى عنه، حيث قال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.[1]

ذكر ابن جرير بسنده عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال:

أتيتُ النبيَّ ﷺ في مجلسٍ قد أطال فيه الجلوس: فقال: « يا أبا ذر، هل صلَّيتَ ؟ ».

قلتُ: لا، يا رسول الله.

قال: « قُم فاركع ركعتين ».

قال: ثم جئت فجلستُ إليه.

فقال: « يا أبا ذرٍّ، هلْ تعوَّذتَ من شياطين الجن والإنس ؟ ».

قال: قلتُ: لا، يا رسول الله. وهل للإنس من شياطين ؟!

---

(1) الأنعام: ١١٢، ١١٣.

قال: « نعم. هُم شَرٌّ من شياطين الجن »[1]

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.[2]

فلا يحول بين هداية الله ونُصرته صَدٌّ ولا عداوةٌ وكيدٌ.

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لمن اتبع رسولَه، وآمن بكتابه، وصدَّقه واتَّبعه؛ فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة.

إن شكوى الرسول ﷺ في اتخاذ قومه القرآن مهجوراً لا تتوقف دلالتها على ما وقع أو يقع من هُجران القرآن، فذلك حاصل في جميع الأمم من قبل ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾[3] ومع التكذيب كيدٌ وهُجران.

لكن ذلك التكذيب والهجران فيه ابتلاءٌ وتحريض لطلاب الحقِّ في أي زمان أو مكان، هل يثبتون على الحق ؟ أم يُستخَفّون ويُستَدْرَجُون ؟

إن هُجران القرآن الكريم تتعدد صوره. وشكوى الرسول ﷺ من الهُجران لا تقف عند زمنٍ بعَيْنِهِ؛ فإن القرآن الكريم محفوظٌ للزمن كله نذيراً للعالمين.

والشكوى إلى الله من كل مَن عدل عنه وضيَّعه، ستظل قائماً ما

---

(1) أحمد: ١٥٤/٣، رقم ١٩٧٩. وفي إسناده ضعفاء.

(2) الفرقان: ٣١.

(3) المؤمنون:٤٤.

بَقِيَ القرآن.

وهو بَاقٍ محفوظ بحِفظ الله، لا يقترب من ساحته باطل، ولا ينال من عِزَّتِهِ متآمر أو جَاحد، ولا يُبطلُ هدايته، أو يُطفئ نُورَه شنآنُ قومٍ أو هُجران.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.[1]

فالشكوى مِمَّن عَدَلَ عنه وضيَّعه شكوى إدانة له، وتسجيل عليه، تُذكر وتُبصر وتُنذر.

فإن القرآن ـ في عِزَّتِهِ وسُلطانه ـ لا يُخاصَمُ ولا يُنَازَع.

فإن « القرآنَ شافعٌ مُشفَّعٌ، ومَاحِلٌ [2] مُصَدَّقٌ، فَمَن جَعَلَهُ أمامه قَادَهُ إلى الجنةِ، وَمَن جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إلى النار ».[3]

وأحقُّ مَن شَفَعَ له القرآنُ أهله وحملته.

وأَوْلَى مَن مَحل به مَن عَدَلَ عنه وضيَّعه.

هكذا نرى عِزَّةَ القرآن ومكانته وسُلطانه « من اتبعه قَادَهُ إلى

---

(1) فصلت: ٤١، ٤٢.

(2) المَحْل في اللغة الشدة. قال ابن الأثير: أي خَصْم مُجادل مُصدَّق، وقيل: ساعٍ مُصدَّق، من قولهم: مَحِلَ بفُلانٍ، إذا سعى به إلى السلطان، يعني: أن مَن اتَّبعه وعَمِل بما فيه، فإنه شافع له مقبول الشفاعة، ومُصدَّق عليه فيما يَرْفع من مَساوِيه إذا تَرك العملَ به.

(3) مصنف عبد الرازق (٦٠١٠).

الجنة، ومَن تَرَكَهُ، أو أعرض عنه، دحَّ [1] في قفاه إلى النار » [2]

فالشَّكوى من هُجران القرآن فيها تبصرةٌ وتذكرةٌ، وإعذارٌ وإنذار. والآيةُ تُقرأ في القرآن إنذاراً لكُلِّ مَن هَجَرَ القرآنَ، إلى آخرِ الزَّمَانِ، ولن يُوقَفُ مَدُّهُ أو تُحصر هِدايتُه. والله يهدي به مَن يشاء.

﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾.

❊ ❊ ❊

(1) الدَّحُ: دَفْعٌ بِعُنْفٍ.

(2) الدارمي: ٢/٢٥٦، رقم ٣٣٢٨، وهو على شرط ابن حبَّان، وباقي رجاله ثقات.